مقدمة الناشر

يتعرض هذا الكتاب لأكثر الموضوعات إثارة للجدل ليس فقط في أوساط المشتغلين بالعمل السياسي أو الأكاديمي بل وفي أحاديث وحوارات رجل الشارع العادي .

فمما لا شك فيه أن صورة المجتمع المصري قد تبدلت خلال العقدين الأخيرين بطريقة تكاد تكون جذرية ، فإلى جانب المتغيرات التي أصابت جوهر البناء الاقتصادي والسياسي وغيرت إلى حد بعيد من طبيعة البناء الاجتماعي والطبقي فقد حدث ما يشبه الانقلاب في سلم القيم المجتمعية السائدة ، فتقدمت حزمة من القيم التي كانت تقليديا تعد سلبية المضمون لتحتل صدارة القيم السائدة بل والمفضلة لدى جمهرة الرأي العام .

و قد أثارت ، ولا تزال بالطبع ، هذه التبدلات جدلاً واسعاً في كل أروقة المجتمع وكان من المنطقي أن يفسح مركز الحضارة العربية المجال أمام هذا الكتاب ليدلي مؤلفاه بدلوهما في تفسير ما جرى في المجتمع وتقصي أسبابه وتحري مظاهره المختلفة ، وذلك بغض النظر عما قد يكون بهذا المصنف من آراء قد لا تعبر بالضرورة عن قناعات أو اتجاهات يتبناها المركز في هذ الصدد وإنما لابد من إثارة الموضوع لأهميته البالغة البينة وإثارة الجدل حوله وإثراء المكتبة العربية به لافتقارها لتناوله ، ولإتاحة المجال لكل الاتجاهات قاطبة للتفاعل فيه والتعامل معه .

ونحن إذ نقدم للقارئ العربي هذا الجهد الكبير تحدونا ثقة كاملة في أن تثير الآراء الواردة فيه ما تستحقه من حوار وجدل يدفعان أصحاب وجهات النظر المختلفة إلى إبداء ما يعتقدونه في تفسيرهم للتحولات القيمية في المجتمع . لاسيما وأن موضوع القيم وتفسيرها يأتي في طليعة الموضوعات الخلافية سواء بين المتخصصين الأكاديميين أو في أوساط السياسيين . فهناك من يرى أن القيم السائدة ترتبط إلى حد بعيد بالأوضاع الاقتصادية والطبقية بينما يذهب آخرون إلى القول بأن القيم تجسد أوضاعاً أكثر ثباتاً من البناء الاقتصادي والاجتماعي المتغير بطبيعته ، فهي تفصح عن جماع الخبرة التاريخية لأمة بالحياة ودروسها المستفادة ، وهي في ذلك أكثر التصاقاً بخصائص الشخصية الإقليمية كما تفصح عنها دراسات الجغرافيا السياسية .

وإلى أبعد من ذلك يعتقد فريق ثالث أن القيم ، بجوانبها الإيجابية والسلبية ، تبقى متعايشة داخل المجتمع وتتبادل فيما بينها مكان الصدارة (القيم السائدة) بحسب الظروف والمتغيرات التي

يصادفها المجتمع بسبب العوامل الخارجية (الغزو - العلاقات) أو العوامل الداخلية من سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية أيضا .

وبالجملة فإن مكونات القيم وروافدها تبدو أكثر تعقيداً مما يظن حتى ليصعب النظر إليها بوصفها مجرد متغير تابع لعوامل أخرى ، إذ هي أيضا تسهم إلى حد بعيد في تحديد قسمات المسار الاجتماعي حتى لتسمه بصفاتها المجتمعية الفارقة .

ومهما يكن من أمر الخلافات التي تنتظم حولها آراء المشتغلين بترسم منحنى السلم القيمي في مجتمعنا فهذا الكتاب هو بلا جدال أحد أهم الإسهامات التي يمكن أن يطلع عليها القارئ العربي قبل أن تغرب آخر أيام القرن العشرين خاصة وأن المؤلفين لهما باع طويل ودور مشهور في الجدل الفكري والسياسي الذي يحتدم في مصر والوطن العربي على مدار العقود الثلاثة الأخيرة .

الناشر

مقدمة

عشرون عاماً ... تكون الآن قد مرت منذ أعلن الرئيس السابق (أنور السادات) عن انتهاج الدوله فى مصر لسياسة الانفتاح الاقتصادى .

عشرون عاماً .. هى فى عمر الشعوب والأمم تكاد لا تذكر ولكنها فى مصر وفى العالم العربى اكتست ملامح مختلفة، تناقضت فيها مقاييس الزمن وحسابات الحركة .

عشرون عاماً .. تكثفت فيها المعطيات والمتغيرات ، وتاهت فيها الملامح والخطوط ودارت خلالها دوامات الأفكار، وتصارعت عبرها الاتجاهات والثقافات واصطدمت فى أحيان كثيرة بالحديد والنار .

عشرون عاماً .. تشكلت فيها خطوط الوطن من جديد .. وإن بصورة دامية وحزينة .

لقد جاءت الخطوط والملامح الجديدة أشبه ما تكون بلوحة سيريالية أنتجتها قريحة مجنونة!!

هنا .. وعبر كل لحظة ، كانت زوايا الرؤية غير مستقرة .. ولا مستمرة ، كل شىء قابل للحركة ، صعوداً وهبوطاً .. حلماً وواقعاً .

عشرات .. بل مئات الآلاف يتحركون فى هذا الاتجاه أو ذاك ينتظرون دورهم فى هذه الحركة الدائبة والمستمرة حتى لو كانت حركة من الثبات .. المهم أن هناك حركة أو حتى الوهم بالحركة .

وعلى هذا الإيقاع الهادئ أحياناً .. الصاخب أحياناً أخرى .. الهادر فى معظم الأحايين . لعب من كان فى مخططهم أن تتداخل الألوان .. وأن تختلط المشاعر .. وباختصار أن تتوه المعالم بين الحق والواجب .. بين العدو والصديق وأخيراً وليس آخراً بين الوطن ولصوصه ..

هكذا لم تعد الرأسمالية عيباً فى مجتمع يئن من صرخات جائعيه . وبالمقابل لم تعد الاشتراكية فى المفهوم العام سوى توزيعاً للفقر بقدر متساو .. ثم لم تعد الولايات المتحدة الأمريكية والغرب قوى استعمارية بل أصدقاء كأعز ما يكون الأصدقاء .

وأخيراً .. سقط آخر المحرمات ، فلم تعد إسرائيل عدواً متربصاً ، بل أبناء عمومة وأصحاب مصلحة فى تنمية المنطقة وتحضر أهلها ؟!

وسط هذا الخضم الهائل من التيارات والمتغيرات صمت الناس ، وبصرف النظر عن قدرة الجهاز الإعلامى على التضليل والتحييد ، كان صمت الناس فى مصر وربما فى غيرها من شعوب المنطقة العربية مفزعاً .. مفزعاً .. وإن جاء تعبيراً عن واقع موضوعى يجسد تياراً من المشاعر والأحلام ، معلناً عن سمات عصر جديد جاء مع تفشى حلم علاء الدين النفطى منذ عام ١٩٧٤ فصاعداً .

نعم .. كانت هناك مؤامرة واسعة ، شارك فيها أطراف عديدون ، مصريون وغير مصريين، سعوديون وغيرهم .. أمريكيون وإسرائيليون ، هذه حقيقه يدركها الجميع الآن ، خاصة بعد اندلاع نيران الحرب المجنونة والمدفوعة على شواطىء الخليج العربى عام ١٩٨٠ ثم حرب تدمير العراق عام ١٩٩١ فهنا الأدوار تحددت والأولويات كشفت عن الوجه القبيح لهذا النظام العربى أو ذاك ، وكشفت فى المحصلة النهائية عن مسرح العرائس العربية وامتدادات الخيوط الساحرة .

ولكننا نقول .. قبل هذا وبعده ، أن ثمة تطوراً موضوعياً جرى خلال العشرين عاماً الماضية على امتداد الرقعة الجغرافية العربية ، كان يدفع شعوبها نحو ما نسميه حالة " **الاسترخاء النضالى** " ثم نزولاً إلى حالة " **القبول بالهزيمة القومية دون معقب** " هجرة الملايين من مواطنى وعمال الأقطار العربية الفقيرة فى عصر النفط (مصر، سوريا ، لبنان ، فلسطين ، السودان ، تونس .. الخ) إلى تلك التى تراكمت على شواطئها الثروة الجديدة ، بقدر ما كان يؤدى إلى ميوعة البنى الطبقية فى هذه المجتمعات بقدر ما صاحبه من نمو غير مسبوق ولا معهود فى الغطرسة الإسرائيلية والأمريكية .. والخط المنحدر يتجه إلى مالا نهاية .

تسوية الخطوة خطوة الكيسنجرية (١٩٧٣) ، والحرب الأهلية الوحشية فى لبنان بهدف اقتلاع الوجود العربى المقاوم (١٩٧٥) والتدخل السورى لضرب نجاحات الثورة الفلسطينيه والقوى الوطنيه اللبنانيه بالتدخل العسكرى (١٩٧٦) ومذابح المخيمات الفلسطينية ، فزيارة السادات المشئومة إلى القدس المحتلة (١٩٧٧) فاتفاقيتا كامب ديفيد (١٩٧٨) فالغزو الإسرائيلى لجنوب لبنان وبداية تأسيس ما يسمى بالحزام الأمنى لاسرائيل فى الجنوب ، ثم معاهدة السادات - بيجين (١٩٧٩) فحرب الخليج والأصابع الأمريكية الخفية (١٩٨٠) فضرب المفاعل النووى العراقى (١٩٨١) ثم الغزو الإسرائيلى الوحشى للبنان واحتلال عاصمته (١٩٨٢) فالاعتداء الإسرائيلى الجوى على تونس وضرب مقر منظمة التحرير الفلسطينية فى حمام الشط (١٩٨٥) فالقرصنة الجوية الأمريكية على طائرة مدنية مصرية (١٩٨٥) ثم تدخل أطلنطى مباشر فى الخليج العربى وبطلب استغاثة مذلة من قطر عربى خليجى ومباركة عربية شبه شاملة (١٩٨٦) ثم اغتيال القائد الفلسطينى البارز (أبو جهاد) على أرض تونس وبيد فرقة اغتيالات إسرائيلية . وأخيراً وليس آخراً تدمير العراق عام ١٩٩١ وتقسيمه وحصار ليبيا وبداية تفتيت السودان وتجويع الصومال .

كل ذلك مصحوبا بدعم أمريكى عسكرى وسياسى على أعلى مستوى وبوقاحة غير معهودة فى تاريخ العلاقات الدولية المعاصرة .

وبعد كل هذا .. فما زال الحكماء العرب .. كل حكام العرب يخطبون ود الولايات المتحدة الأمريكية " ويناضلون " بكل جهد وتفانى للحصول على تأييدها .. أو حتى تحييدها !؟

نعم .. لوحة سيريالية مجنونة ..

بيد أن هذه ليست كل الخطوط والملامح الحزينة وإنما هى المظاهر العامة والخطوط العريضة فداخل هذه التفاعلات والملامح العامة ، يكمن الكثير مما هو حزين بدوره .. إنها سمات واتجاهات الأفراد وقيمهم الاجتماعية والأخلاقية .

* * *

فإذا كانت الأخلاق هى فى التعبير الأخير ، مشتقة من حقائق الوضع الاقتصادي الذى بلغة هذا المجتمع أو ذاك فإن التحليل العلمى للمظاهر العامة التى ذكرناها سوف يشار إليها باعتبارها نتائج ضرورية لجذور ومقدمات سابقة ، وإن عادت هذه المظاهر العامة لتغذى من مشاعر الإحباط الفردية ولتكرس من بعض تلك المقدمات والجذور .

ولكن .. كيف يتوقف التحليل العلمى أمام هذه الظواهر بالرصد والتحليل لمعرفة المقدمات والجذور المسئولة عنها أو على الأقل التى لم تكن من القوة بحيث تتصدى لبوادرها وتوقف مداها المدمر على الأصعدة السياسية والثقافية والنفسية لشعوب المنطقة العربية ؟

هذا هو السؤال المركزى فى هذا الجهد البحثى الذى استمر لسنوات عشر أخذ منا بقدر ما تعلمنا نحن من خلاله .

ونبادر بالقول . إن محاولتنا هذه تظل برغم كل ما بذلناه لكى تأتى بتفسير اقتصادى واجتماعى لحالة الجزر القومية فى مصر الآن ، تظل مجرد محاولة ، قد يكون فضلها الوحيد أنها قد حاولت تأسيس هذا التحليل على جمع مفردات الواقع المعقد بصورة مستحيله لكى نستخلص منه جملة مفيدة فحسب ، وهى بهذا المعنى تفتح باباً واسعاً للمناقشة والحوار والاستكمال من جانب كافة القوى الوطنية لملامح البلاتوه الحزين ، وذلك كخطوة أولى نحو صياغة مشروع وطنى وشعبى جديد يمسك بالحلقة الأساسية لإحداث ذلك التغيير المنشود .

* * *

نعود إلى سؤالنا المشكلة ، كيف حدث كل هذا ؟ ومنذ متى ؟ وإلى أين ؟

نقطة هناك فى مساحة الزمن ، وفى مساحة الذاكرة القومية ، تبدأ عندها صيرورة العذاب القومى، قد نختلف فى رصدها وتأريخها .. هل هى دخول قوات الإحتلال الأنجلو فرنسى إلى المنطقة؟ هل هو نمط حكم محمد على فى مصر ؟ أو ربما طول فترة الاحتلال العثمانى بكل ما اتسم به من وحشية وجمود ؟ هل هى الممارسة السياسية لأحزاب ما قبل ١٩٥٢ ؟ أما أنها تأتى بعد ذلك عندما امتد حكم الضباط والعسكر منذ ذلك التاريخ وحتى يومنا الراهن تقلبت فيها الموازين وتبدلت خلالها الاتجاهات والبرامج ؟

بالقطع هناك نقطة .. وإلا لصدقنا تلك المقولة العنصرية والمغلوطة والتى ترى أن هناك ضعفاً

أصيلاً فى الشخصية المصرية والعربية .

من جانبنا - وبعد قراءة متأنية فى التاريخ المصرى الحديث - فقد اعتبرنا أن هذه النقطة تبدأ بظهور العسكر على مسرح السياسة المصرية - والعربية - أى منذ يوليو عام ١٩٥٢

صحيح أن ما قبلها لم يكن لامعاً وبراقاً . ولكن المؤكد الآن أن ما بعدها كان يثير الفزع والخوف لدى الكثيرين .. وبادئ ذى بدء ، فإن تحليلنا لا ينطلق من إدانة مسبقة للتجربة الناصريه وأسلوبها فى الحكم والإدارة .. ذلك أن قراءة فى تاريخ العالم الثالث بعد الحرب العالمية الثانيه تشير إلى الطابع الموضوعى لهذا النمط واتجاهه للسيادة والسيطرة فى مجتمعات لم يكتمل بنيانها الطبقى ومن ثم لم تتبلور التجسدات السياسية لهذه الطبقات وبخاصة الطبقة العمالية فيها .

إذاً .. لماذا ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ بالتحديد ؟

قد يبدو ذلك غريباً لدى البعض . مثيراً للحنق والضيق لدى البعض الآخر .. دافعاً إلى الدهشة لدى الآخرين ، خاصة وأن القراءة الأولى للفصل الأول من هذا الكتاب تشير إلى أن هناك تقييماً إيجابياً بصورة عامة يحمله الباحثان للتجربة الناصرية ولقائدها . بيد أن جوهر هذا التقييم سوف يتوقف ليس عند حدود الإنجازات المادية والقومية التى حققتها هذه الحقبة التاريخية . وإنما سوف يمتد من منظور تاريخى للتوقف بالتساؤل التالى : ما هو الثمن النفسى لتلك التجربة على قطاعات واسعة من الشباب والفئات الحية والنشطة فى المجتمع من المنظور المستقبلى ؟ وبمعنى آخر ما هو نصيب التجربة الناصرية فيما نشهده حالياً من تفاقم مظاهر السلبية واللامبالاة بين فئات واسعة فى المجتمع المصرى ؟

والتدقيق الجدلى لمسار هذه التجربة الغنية فى الكثير من جوانبها ، سوف يستخلص حقيقة مؤلمة كانت ولا زالت تمثل القاعدة التى تأسست عليها كل التطورات السياسية والاجتماعية فى مصر فيما بعد حقبة ١٥ مايو نقصد بها ملامح الخوف المعزز بغياب أية صلاحية سياسية خارج إطار الحزب السياسى الواحد والنظام الشمولى الذى جعل من شخص رئيس الجمهورية مصدراً لكل الصلاحيات والمبادرات والأفعال منذ ذلك التاريخ وحتى وقتنا الراهن وإن اختلفت الأشكال .

فدولة المخابرات كانت قد قطعت الطريق أمام تواصل شعبى حقيقى مع الخط السياسى والإعلامى للتجربة الناصرية وعدائها - الذى لا شك فيه - للاستعمار وإسرائيل . وبالمقابل فقد ظلت التعبيرات السياسية والتجسدات التنظيمية للقوى الأكثر جذرية فى معاداتها للاستعمار وإسرائيل (اليسار المصرى) أضعف كثيراً من هموم اللحظة وإيقاعات أحداثها المتلاحقة والمأساوية ..

وبرغم أن التباشير الأولى لسياسة الانفتاح الاقتصادى ، كانت تبشر باحتدام نيران الصراع الاجتماعى فى البلاد بصورة غير مسبوقة (مظاهرات عمال حلوان والمحلة فى يناير ومارس ١٩٧٥) مما كان يفتح طاقة نور فى كتلة الظلام القادمة فى صحبة هنرى كيسنجر ، فإن المعادل العكسى

المتمثل فى الحقبة النفطية وهجرة ملايين المصريين والعرب أو حتى حلمهم الممتد للهجرة كان كفيلاً بأن يجهض هذا الأمل - ولو إلى حين - وليضيف إلى حالة الميوعه الطبقية فى البلاد بعداً جديداً .

* * *

وإذا كانت الثقافة هى ذلك التيار أو التيارات من المشاعر والأحاسيس المدركة لدى فئات اجتماعية واسعة كما أنها المدركات الواعية والموجهة لدى فئات اجتماعية أضيق نطاقاً ، فإن الإنسان المصرى - وربما العربى أيضاً - قد وجد نفسه فى تلك الحقبة التاريخية إزاء اتجاهين متصارعين كل منهما يمثل منحىً تغريبياً مدمراً ، يدفعانه إلى الانفصال والانفصام عن الاندماج فى قضاياه الوطنية والقومية وتكريس مظاهر حصاره النفسى داخل دائرة الثروة الفرديه المحققة فعلاً أو المرغوب فيها .

ومن هنا ، وجدت الدائرة الانشقاقية الشريرة ، رافداً جديداً للاستمرار والتواصل . فمن جهة برز التيار البراجماتى المستند إلى مفهوم السوبرمان الأمريكى والمعزز بطاقة اختراق هائلة وبيئة صالحة لاستقباله وعبرت عن ذلك وسائل الإعلام المصرية المسموعة والمقروءة والمرئية وبخاصة جهاز الهدم المنظم (التليفزيون) .

يكفى فى هذا المجال مراجعة حجم ومضمون الحملة الإعلامية التى صاحبت زيارة كسينجر ونيكسون للقاهرة منذ عام ١٩٧٣ وحتى الآن لنكتشف مدى التضليل والتزييف الواسع المدى الذى تعرض له وعى وعقل الإنسان المصرى بهدف زرع قيم ومفاهيم الارتباط بالغرب الإمبريالى والطموح لتقليده واللهاث وراءه .

وعلى الجانب الآخر ، اندفع التيار السلفى (الإسلامى) بفعل الدعم والمساندة المادية والمعنوية التى تلقاها من مراكز الثروة الجديدة (أقطار الخليج) معززاً سطوته كل يوم من جراء الفشل المزدوج الذى أصاب السياسات الحكومية والتيارات اليسارية على حد السواء وطرح هذا التيار السلفى الجديد رؤيه ظلامية للثقافة الإنسانية مصحوباً بدعوة للتزوع الأخروى فى وقت انغمس فيه كبار أنصاره ومريديه فى ملذات ومداخل الحياة الدنيا ..!!

بل إن المراقب عن كثب لمخرجات آلة الطباعة المصرية والعربية خلال تلك المرحلة سوف يلاحظ مدى غلبة الطابع السلفى على الثقافة العربية ، وسوف يجد المرء نفسه إزاء جملة من الأطروحات المعادية والنافية للعلم من حيث كونه علماً حتى لدى هؤلاء الذين يُنظر إليهم باعتبارهم أنصار للفكر المستنير فى أوساط هذه التيارات السلفية .

لقد كتب أحدهم قائلاً " إن القصور فى تعاليم الصليبية ونسيانها للعهد القديم جعل العلوم الإنسانيه تنشأ لتسد الفراغ الواقع فكانت علوم النفس والاجتماع والاقتصاد والسياسة " - (محمد الغزالى - هموم داعية ص ٩٣) - هكذا ينظر هؤلاء إلى العلم وتطوره والمعرفة الإنسانية ومسارها !!

هكذا أصبح الإنسان المصرى محاصراً بين المثلث الجهنمى المتمثل فى نموذج السوبرمان الأمريكى

عبر وسائل الإعلام الحكومية من جهة والرؤية الظلامية السلفية الدينية من جهة أخرى وأخيراً ثروته الموجودة أو المرغوبة . ووسط هذه التيارات من الأفكار السابح وسطها هذا الإنسان كان كل شيء يدفعه دفعاً إلى حالة من الانتحار المعنوى والاغتراب الاجتماعى والقومى .

* * *

وفى مجال السلوك ، كان من الطبيعى أن ينعكس ذلك التغيير الموضوعى ، على الذات الفردية للإنسان المصرى - والعربى عموماً - حيث تشير كل المظاهر إلى تنامى مشاعر " الأنا " والنزوع الفردى المصحوب بهروبية مفزعة ومدمرة لكل القيم الجماعية التى استقرت فى الوجدان المصرى والعربى لعقود طويلة ماضية .

والمتابع عن كثب للوقائع الفعلية للحياة المصرية والعربية وما يتاح منها للنشر - وهو محدود قطعاً بالقياس بالمساحة الحقيقية للواقع - سوف يجد أننا إزاء دراما إنسانية يحياها شعب بأسره يمتد من المحيط حتى شواطىء الخليج . فحالات التفكك الأسرى فى مصر الواضحة للعيان ، والغش الجماعى والفردى فى النظام التعليمى وسيادة مفاهيم الفهلوة والشطارة وقيم المضاربة والمقامرة المدعومة من أجهزة الإعلام الحكومية (فوازير رمضان مثلاً) وبالمقابل تدهور قيم العمل المنتج وانتشار البغاء الفكرى والجسدى كلها مظاهر منعكسة لحالة من الصراع الاجتماعى المفتقد إلى قنوات ايجابية للتغيير والتطوير الجماعى .

يكفى للتعرف على عمومية الظاهرة المرضية أن نشير إلى المصاحبات الكوميدية لأكثر الحوادث درامية فى التاريخ العربى الحديث ، فبينما كانت بيروت تتعرض لحصار إسرائيلى لم تشهده صراعات المنطقة من قبل من حيث القسوة والوحشية ، كانت الشعوب العربية جميعها - ربما دون استثناء جاد - مشغولة عن بكرة ابيها بالحادث الأكثر أهمية وهو مشاهدة مباريات كأس العالم لكرة القدم المنعقدة فى العاصمة الأسبانية "مدريد" ..

وفى نفس اللحظة تقريباً التى كانت بيروت الغربية المحاصرة تتعرض لأبشع قصف جوى وبحرى وبرى إسرائيلى (الخميس الأسود) كانت جماهير الجزائر ذات المليون شهيد تستعد للخروج فى مظاهرة احتجاج عارمة ضد المحكم الرياضى الذى لم يحتسب ضربة جزاء للفريق الجزائرى الوطنى وأخرجه بالتالى من البطولة الرياضية !!

وفى مصر، كان للمناخ العام الذى أشرنا إليه منذ قليل، ومع تزايد حدة الأزمة الاقتصادية فى المجتمع، أن أدى بدوره إلى اتساع رقعة الأنشطة الإجرامية والتشكيلات العصابية الخارجة عن القانون، وشملت الظاهرة فيمن شملت أبناء فئات اجتماعية لم تكن من قبل تدخل فى دائرة نشاطها.. وعزز من سيادة هذه القيم الإنسانية تفشى حالات القمع السياسى لقوى المعارضة السياسية ، وزيادة حالات التعذيب الجسدى للمعارضين السياسيين خاصة اليساريين والجماعات الدينية منذ مطلع عقد

الثمانينات لتصبح سمة من سمات نظام الحكم . نقول عززت هذه الممارسات من نزوع الإنسان المصرى نحو العزلة والخوف واللامبالاة والانطواء بعيداً عن المساهمة فى العمل العام .. ومن ثم محاولة الهجرة بعيداً بعيداً إلى حيث تستطيع الأقدام أن تبتعد وإلى حيث تتمكن الروح أن تهرب .

كما ساهمت حالات الفساد السياسى والنهب الذى ثبت قضائياً - فى حالات كثيرة - أن لأصحابها صلة بكبار رجال الحكم والإدارة والتشريع ، فى تزايد وتكثيف مشاعر الانطواء لدى فئات واسعة من المصريين واستقر فى وجدان الكثيرين مصداقية الأمثال الشعبية القديمة "حاميها حراميها" و"المياه لا تصعد إلى العالى" إلى آخر تلك القيم السلبية عموماً .

* * *

كان لابد لكل هذا أن ينعكس فى مرمى البصر السياسى للقوى السياسية المختلفة على الساحة المصرية سواء تلك التى نالت - لاعتبارات متعلقة بالنظام الحاكم فحسب - حظاً بالاعتراف الحكومى بها أو القوى السياسية غير العلنية والتى لم تحظ بعد بالاعتراف القانونى والرسمى . فجاءت برامجها عموماً ورؤاها السياسية قاصرة عن فهم التطورات الجارية فى جوهرها وعن رصد اتجاهات الحركة المستقبلية .

وهكذا خلت الساحة السياسية المصرية بصورة تكاد تكون تامة ، من وجود فصيل سياسى قادر على طرح منظور مستقبلى لإنقاذ الوطن من محنته يكتسب مصداقية ويجسده التفاف جماهيرى مناسب وفعال .

صحيح أن هناك أفكار وبرامج ورؤى ، ولكنها ظلت أسيرة لمفاهيم غير تلك التى تحكم حركة الأفراد فى عصر الانفتاح والنفط .

فى أقصى اليمين كانت الجماعات الدينية والسلفية بكل عنفوانها وسطوتها ، عاجزة عن أن تخرج عن دائرة نفوذها العشائرية والإقليمية فى أقصى جنوب الوادى وفى بيئة عانت من الحرمان التاريخى ولا زالت .

وبالقطع فإن صدام بعض فصائل هذا التيار (خاصة الانقلابيين) بجهاز الدولة المصرى لم تكن تسير وفقاً لبرنامج واضح لحل مشاكل الوطن وفقرائه وهكذا ظلت الجماعات الدينية بكافة تياراتها (الإخوان - الجهاد - الجماعة الإسلامية - حزب التحرير الإسلامى ..الخ) مجرد محاولة للتبلور حول معطى دينى بالأساس فى عصر تاريخى تتخذ فيه القيم الجمالية والأخلاقية طابع متغير على الدوام..

ومن ثم فإنه لم يكن ليدوم طويلاً حالة الانتعاش والابتهاج التى أصابت أفراد هذه الجماعات بعودة حكم الخليفة والأئمة فى طهران عام ١٩٧٩ فما هى إلا شهور قليلة وسقطت أول تجربة معاصرة من هذا النوع فى اختبارات الصلاحية الإنسانية وأخذت هذه الجماعات فى التراجع عن تأييدها

والتهليل لها (مجلتى الدعوة والاعتصام) معتذرة باختلاف العقائد بين أهل السنة وأهل الشيعة.!!

وبرغم ما حققته بعض من هذه الجماعات (الإخوان المسلمين) من نجاحات سياسية أحياناً بفعل بساطة شعاراتها وابتكارها فى أساليب الدعاية والتنظيم ، فإنها كأى قوة فاشية شهدها التاريخ الانسانى الحديث ، كان محكوماً عليها فى الأجل الطويل بأن تظل إحدى القوى السياسية دون أن تكون أكثرها تأثيراً .

ولا شك أن الرصد الاجتماعى لظاهرة صعود التيار الدينى فى مصر ، سوف يكشف طابع العلاقة الجدلية بين توسع النفوذ السياسى والفكرى لهذا التيار وبين تمدد الفئات البينية فى البورجوازية الصغيرة المصرية خلال المرحلة الأولى من الانتعاش النفطى (٧٤ - ١٩٨١) كما ساهمت عوامل أخرى عديدة ومتداخلة فى تغذية ذلك النزوع اليمينى عموماً فى المجتمع بعضها استهدفته قوى اجتماعية فى الداخل وبعضها الآخر نشطت فى تأثيره قوى إقليمية ودولية ارتبطت مصالحها باتجاه بندول السياسة المصرية - وهى مركز كل التحولات العربية - إلى اليمين شيئاً فشيئاً وأخيراً كان بعضها مرتبطاً بانحسار النفوذ الفكرى لقوى اليسار المصرى واستغراق معظم فصائله فى وثنية وسلفية من نوع آخر وخطير .

والمراجع لأدبيات هذه الفصائل سوف يدهشه ذلك التكرار المزعج فى المقولات والمفاهيم وتلك الدوجما المسيطرة على أطروحاتها ، فلم نشهد تشريحاً اجتماعياً وطبقياً مبدعاً لجوهر هذه التحولات القادمة مع عصر الانفتاح والنفط . ولم تستطع هذه الفصائل على صعيد الممارسة التنظيمية والجماهيرية أن تحقق اشتباكاً جاداً مع القوى الاجتماعية الأكثر تعرضاً لمخاطر السياسات الجديدة للحكم واتجاهاته خاصة الطبقة العاملة ، ومن ثم ظلت هذه الفصائل محاصرة فى دوائر وصفوف طلابية وبورجوازية صغيرة محدودة التأثير والفاعلية وباختصار فان القصور الذاتى لقوى اليسار طوال عقدى السبعينيات والثمانينيات كان قد اندمج بدوره فى هذا الظرف الموضوعى الذى يمر به المجتمع المصرى وطبقاته ليصبح جزءاً من الأزمة العامة .

وبين هذا وذاك تعددت القوى وتداخلت الأفكار (التجمع - العمل - الناصريون - الوفد) وان ظل القاسم المشترك بينها هو " الحفاظ على شعرة معاوية "بينها وبين النظام والحكم أملاً فى تمثيل سياسى مناسب لهذا الطرف أو ذاك فى مؤسسات الحكم وإتاحة قدر من الحريات السياسيه تسمح لها بالحركة الجماهيرية بعيداً عن الرقابة المشددة التى تمارسها أجهزة الأمن والاستخبارات ، وتشل بالتالى حركتها ومبادرتها الجماهيرية .

وفى ظل هذا العجز السياسى العام ، أو الركود السياسى بتعبير آخر ، وفى ظل مناخ من الهزيمة والانكسار القوميين تعززه كل يوم ممارسات إسرائيل العدوانية والقبح الأمريكى أخذت مظاهر العنف السياسى تتسلل إلى المجتمع المصرى واتخذت هذه المرة أشكالاً تنظيمية مستقلة (الحركة الشعبية

اليسارية - تنظيم الجهاد الدينى - منظمة ثورة مصر الناصرية - التنظيم الناصرى المسلح - الناجون من النار) تنهج أسلوب الكفاح المسلح وذلك وسط تيار من التعاطف الشعبى المتسع المدى والمتصاعد إلى الذروة فى حالة منظمة ثورة مصر ، مما لا يخفى دلالته السياسية على المحللين والمهتمين بالتطور السياسى فى البلاد .

* * *

إذاً .. ما الذى يحمله المستقبل فى جعبته لمصر وبالتالى للعرب ؟

هل مزيد من الاغتراب وافتقاد الهوية والهزيمة القومية ؟

يبدو لنا أن هذا الفرض - برغم أننا نعيشه حالياً - إلا أنه ضد حركة التاريخ بكل ما تحمله الكلمة من معنى .

فلم يشهد التاريخ - على حد علمنا - انزواء قومية بمثل هذه الصورة ولصالح نموذج أكثر رجعية وأقل تحضراً بمنظور الصراعات التاريخية الكبرى .

وبرغم أوجه الشبه العديدة بين المشروع الاستيطانى الانجلوسكسونى فى مطلع القرن السابع عشر فى القارة الأمريكية واسرائيل كمشروع استيطانى استعمارى فى المنطقة العربية إلا أن هناك نقاط فارقة تجعل من المستحيل أن تكتمل صيرورة هذا الأخير كالنموذج الأمريكى والأوروبى فى الأمريكتين .

فإذا كان الأول مدفوعاً باضطهاد دينى قد ذهب إلى موطن الذهب والثروة الجديدة ، فإن الأخير هو محاولة للتبلور والاستمرار حول المعطى الدينى بالأساس .

وإذا كان الأول مشروعاً حضارياً رأسمالياً فى بيئة كانت تعيش فى علاقات إنتاج بدائية فإن الأخير قد جاء كمشروع رأسمالى فى بيئة كانت تترسخ فيها كل يوم علاقات الإنتاج الرأسمالية .

وهكذا فإن الأول كان منسجماً مع إيقاع عصره ، وكان غازياً بالجديد والمتقدم أما الأخير فإنه وليد مشوه للماضى آتياً معه بكل وحشية هذا الماضى ليزرع بذور العنف والقسوة وليحصد هو وحده حصادها المر .

وبالتالى فليس من المقرر أن تستمر حالة الضياع القومى والهزيمة القومية طويلاً .. ولكن ماذا إذا كانت هذه الحالة هى وليدة حماية أنظمة سياسية واجتماعية عربية ؟

هنا تتداخل مهام التغيير الاجتماعى بقضايا التحرر الوطنى ، فليس من المتصور أن تنكسر تلك الحلقة الشريرة فى غياب هانوى عربية - على حد تعبير القائد الفلسطينى البارز جورج حبش - ولا يمكن فى ظروف صراع معقد كالصراع العربى - الصهيونى بتداعياته الدولية والتدخلات الإمبريالية أن تصمد هانوى عربية واحدة فربما يستدعى الأمر أكثر من هانوى عربية .

الاحتمالات مفتوحه ... وطاقة الشعوب عندما تنفجر فلا يدرى أحد حدود عطائها .

* * *

يبقى فى هذه المقدمة المطولة نقطة تحتاج إلى بعض السرد والإيضاح ، نظراً لما تمثله من معنى خاص لدى كاتبى هذا المؤلف والخاصة بالأسباب التى أدت إلى تأخر إعداده وإصداره لأكثر من عشر سنوات كاملة بسبب من ظروف الاعتقال التى طالت أحدنا عام ١٩٨٥ وعام ١٩٨٩ والاوضاع المعيشية غير المواتية التى أصابت الأخر فقد جاءت فكرة هذا الكتاب بداية منذ عام ١٩٧٩ ، حينما تولى الزميل عبد الخالق فاروق إصدار دراسته "الانفتاح الاقتصادى والجرائم الاجتماعية" المتضمنة بنشره "جماعة الدراسات السياسية والاقتصادية" التى كان قد ساهم فى تأسيسها مع آخرين بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية فى العام السابق مباشرة . ثم أدخلت عليها بعض التعديلات ، وتم نشرها بمجلة شؤون عربية التى كانت تصدرها وحدة المجلات بجامعة الدول العربيه بتونس ويتولى رئاسة تحريرها وقتئذ الأستاذ الدكتور أنيس صايغ تحت عنوان "الآثار الاجتماعية للانفتاح الاقتصادى.. دراسة فى نسق القيم والمفاهيم " وذلك فى شهر نوفمبر من عام ١٩٨١ .

وبعدها بفترة تولى الزميل محمد فرج نشر دراسته الأخرى بعنوان "أزمة الانتماء فى مصر" فى عدد مارس من عام ١٩٨٤ فى المجلة غير الدورية "موقف " التى كان هو أحد القائمين عليها وقت ذاك.

ثم توالى بعد ذلك نشر بعض الدراسات لكلينا حول هذا الموضوع فى بعض الدوريات العلمية (المنار - قضايا فكرية - شؤون عربية) واستدعى الأمر بفعل ذلك الاهتمام المشترك بالموضوع الاتفاق على صيغة علميه تسمح لنا باستكمال التحليل الاقتصادى والاجتماعى حول الانفتاح الاقتصادى فى مصر وتأثيراته على مختلف جوانب السلوك الاجتماعى فى البلاد وهكذا جاءت فكرة الكتاب فى أواخر عام ١٩٨٤ تقريباً .

وقد أدى نشر مباحث من الكتاب فى بعض الدوريات العلمية السالف الإشارة اليها إلى تحديد منطقى لتقسيم موضوعات البحث وإجراء توسعات فى بعض أجزائه .

وبهذا انفرد الزميل/ محمد فرج بعرض الفصل الأول (باستثناء المبحث الرابع) والرابع والخامس (باستثناء الأجزاء الخاصة بالسينما والمسرح والصحافة والتليفزيون) .

وقد تولى الزميل/ عبد الخالق فاروق الفصول الثانى والثالث والسادس علاوة على الأجزاء الإضافية من فصول الزميل محمد فرج .

والحق أن مشكلة الواقع الاجتماعى وجوهر هذا الجهد البحثى قد عبرنا عنها فى صياغة عبارتى " التجريف الاجتماعى" و " التبلور الطبقى " كقطبى الحركة ولعلنى أؤكد أن هذه الصياغة

البسيطة قد لخصت فى عبارتين مفهومنا المشترك لجدل حركة الواقع الاجتماعى فى مصر الآن وفى المستقبل المنظور.

ولا يسعنا فى ختام هذه المقدمة سوى أن نقدم خالص شكرنا وتقديرنا لتلك الجهود التى بذلها بعض أساتذتنا وأصدقائنا ورفاقنا فى قراءة مخطوطة هذا الكتاب وإبداء الرأى والملاحظات بشأن بعض فصوله ، وبرغم ما كان يستدعى ذلك منا إعادة النظر فى بعض أجزاء الكتاب عملاً بالكثير من هذه الانتقادات وتجشم عناء إعادة صياغة فصول بكاملها فانه على أية حال كان مصدراً لسعادتنا وترحيبنا .

ولعلنا لا نستطيع أن نوفى كل هؤلاء حقهم من الشكر والتقدير ، خاصة أن القائمة قد تطول لتستغرق صفحات بكاملها ولكنا نخص بالشكر الزميل الصديق محمد نور الدين على تلك القراءة الدقيقة والحريصة لسطور المخطوطة والتعليق على الكثير منها كما نتوجه بالشكر إلى الاستاذ الدكتور/ محمود عبد الفضيل لما بذله أيضاً من جهد فى مراجعة بعض فصول الكتاب وكذلك الاستاذ الدكتور/ فؤاد زكريا الذى حالت ظروف سفره دون قراءة بقية فصول الكتاب وكان لملاحظاته دورها الكبير فى إعادة صياغة بعض المفاهيم والتوقف بالمراجعة عند بعض المصطلحات .

أما أستاذنا الدكتور/ محمد دويدار فقد كان لتشجيعه لنا منذ بداية نشر بعض مباحث هذا الكتاب عامى ١٩٧٨ و١٩٨١ دوره البالغ الأهمية فى الاندفاع بالفكرة حتى صورتها التى بين أيديكم ولا يفوتنا أن نوجه الشكر والتقدير إلى أستاذنا الدكتور جلال أمين على ما استقطعه من وقته الثمين فى قراءة مخطوطة الكتاب وإبداء الكثير من الملاحظات والتى أخذنا بها .

أما الصديق الأستاذ على عبد الحميد رئيس مركز الحضارة العربية فقد تحمل مشكوراً عناء المخاطرة بطبع كتاب بهذا الحجم وبهذه التكلفة فى ظل مناخ غير موات ثقافياً وسياسياً فى مصر ! لأسباب لعل هذا الجهد يحاول أن يجد تفسيرا لبعضها .

كما نتوجه بالشكر إلى الأستاذ محمود عبد الحميد الذى كان لحرصه وجديته دورها فى الانتهاء من طباعة هذا العمل وكذلك الأستاذ جمال فاروق الذى عانى فى مراجعة المخطوطة .

فلهم جميعاً ولكل الرفاق والأصدقاء الذين قرأوا المخطوطة فى بعض مراحلها وأبدوا ملاحظاتهم فى تلك المسيرة الشاقة خالص شكرنا وتقديرنا وإن كان ذلك لا يعفينا وحدنا من أية أخطاء أو قصورات تكون قد تسربت من تحت أيدينا هنا أو هناك .

المؤلفان